مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة السادسة، العدد الحادي عشر
خريف وشتاء ١٤٣١-١٤٣٢هـ/٢٠١٠-٢٠١١م
صفحة ٤٩ - ٦٨

مذهب الشيخ الطوسي النحوي

علي خياط *
عضو الهيئة التدريسية في الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية
(تاريخ الاستلام: ٨٩/٢/٣ ؛ تاريخ القبول: ٨٩/٤/١٥)

الملخّص

محاولات الشيخ الطوسي الأدبية بشكل عام والنحوية منها بشكل خاص في "التبيان" وطريقة معالجته لها شاملة مستوعبة في وجازة وإيفاء بيان، ثم تسخير طاقاتها وتفجيرها في ميدان التفسير، جعلت للنحو ميدانا واسعا في تفسير الطوسي؛ فقد احتوى على كثير من الآراء النحوية لأعلام مدرستي البصرة والكوفة، ثم إنه ليس مجرد ناقل للآراء، بل ينقدها ويمحّصها ويميّز بين الصحيح والسقيم ببصيرة فنية كاملة وملكة موهوبة مفنّدا تارة ومرجحا أخرى ويجتهد برأيه دون الاستشهاد برأي أحدهم ثالثة، مما يدل على تضلعه بهذا العلم واتساع آفاقه النحوية والأدبية وتبحره الواسع وبراعته المميّزة، فجعل منه إماما في النحو له مذهبه ورأيه، إلا أنّ كشف مذهبه بحاجة إلى فحص دقيق فيما يقتضيه عصره أوّلا واستنطاق نصوص تفسيره ثانيا، وها هو ما نحن بصدده في هذا المقال بمنّه وكرمه.

الكلمات الرئيسية

الطوسي، النحو، التبيان، المذهب الكوفي، البصري، البغدادي.

---

* هاتف الكاتب: ٠٩١٥٥١٩٩٢٤٠ E-mail: ajz80@yahoo.com

مقدمة

إن تفسير "التبيان" للشيخ أبي جعفر الطوسي[١] موسوعة علمية «قيمة لا يأتي مثله في سالف الزمان» (أكبرآبادي، ١٣٩١، ص٥٥) وخضمّ واسع من العلم تناول فيه مؤلفه ألواناً من المعارف الإسلامية واللغوية التي عالجها بإتقان متفنّنا فيها على كثرتها وتعدد اتجاهاتها والتي تدلّ بوضوح على تمتعه بمؤهلات كبرى وقابليات نادرة مما أتحفت المكتبة الإسلامية بهذا الكنز الرائع الثمين الغني عن الوصف، والإطراء عليه الذى وقف العقل أمامه حائراً مشدوهاً يخالجه مزيج من الإعجاب والمهابة؛ فلا يملك أمام

---

١. هو الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي; من ألمع النجوم في سماء العلماء. ولد في رمضان سنة ٣٨١ او ٣٨٥ وترعرع في مسقط رأسه، ودرس فيها علوم اللغة والأدب والفقه والحديث وعلم الكلام والتي هي مقدمات أساسية لمن أراد أن يواصل دراسته العلمية العالية في مجلات العلوم الإسلامية؛ فهاجر بعدها إلى بغداد «حاملاً من الثقافة الإسلامية فنونها». تتلمذ على يد الشيخ المفيد آنذاك ونهل من معارفه وعلومه ماشاءالله، ثم عند تلميذ الشيخ المفيد السيد المرتضى علم الهدى سنوات طويلة.

كفاه مدحاً أن يلقب (بشيخ الطائفة). امتاز الشيخ الطوسي بكثرة التآليف القيمة، والتصانيف الجيدة، الغنية عن كل إطراء وثناء، فبزغت أسفاره في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب. وهو أكثر أعلام الفكر الإسلامي أثراً، وأجودهم إنتاجا، ولا زالت آثاره التي دبّجها يراعه غرّة في جبين الدهر وناصية الزمن. من ثمار الشجرة الطوسيّ تلك المواهب الطيّبة التي أثمرت عن مؤلّفات احتلّت المكانة السامية بين آلاف الكتب التي انتجتها عقول العلماء في كل فروع الثقافة الإسلامية فأصبحت المصدر والمرجع المعول عليه عند الباحثين والمحققين. وحسبه عظمة وفخراً أن تكون كتبه محور كل الأبحاث والدراسات. أسدى هذا العالم خدمةً إنسانيّة كبيرة سدّ بها ثغراتٍ كثيرةً في المكتبة الفكرية والإنسانيّة، وفتح الآفاق الواسعة أمام الأجيال، وصار رمزاً من رموز حضارتنا الإسلاميّة في شتى المجالات. إنّه كان رجلاً موهوباً، وعلَماً فرداً، وآيةً من آيات الله البالغة، وحُجّةً مِن حججه الكاملة. توفي في محرم الحرام سنة ٤٦٠هـ (راجع في ترجمة حياته: النجاشي، الرجال، ص٣٨٧؛ العلامة الحلي، الرجال، ص١٤٨؛ البستاني، دائرة المعارف، ج٤، ص٢٤٠؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص١٢٧؛ حاجي خليفه، كشف الظنون، ج١، ص٤٢٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٢؛ ابن حجر، لسان الميزان، ج٥، ص١٣٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٩٧؛ الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٨٤؛ المامقاني، تنقيح المقال، ج٣، ص١٠٤؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٣، ص١٢٤؛ آغا بزرك، مقدمة التبيان؛ الغروي؛ مقدمة الاستبصار وغيرها).

هذه العظمة سوى الإقرار بالعجز. يعتبر هذا التفسير من أوائل التفاسير الجامعة الّتي ظهرت في العالم الإسلامي و«يمثّل ـ بحقّ ـ مرحلة عظيمة من مراحل نضج التفسير وتطوّره لمزجه بعلوم الشريعة الأخرى» (جاسم، ١٤١٤، ص١٦٢)؛ فهو موسوعة حافلة جامعة شاملة لمختلف أبعاد الكلام حول القرآن لغة وأدبا وقراءة ونحوا وتفسيرا وتأويلا وفقها وكلاما (راجع: الحكيم، ١٣٩٥، ص٣١٢)، لم يترك جانباً من جوانب الكلام الإلهي الخالد إلا وقد بحث عنه بحثاً وافياً في وجازة وإيفاء بيان (راجع: معرفت، ١٤١٩، ج١، ص٣٧٥) يحظى بقوة ومتانة وقدرة علمية فائقة، «كتاب جليل كبير عديم النظير في التفاسير» (بحرالعلوم، ١٣٨٦، ج٣، ص٢٢٨) لم يعمل مثله «يحتوي على تفسير القرآن ويشتمل على فنون معانيه» (الطوسي، ج١، ص١).

مكانة النحو في التفسير، جليلة، وصلته به وطيدة، ومدى الحاجة إليه غني عن البيان؛ إذ هو الأداة الوحيدة لفهم تراكيب الكلام وتحليلها، فعرف مفسرونا السلف قدره ورفعوا شأنه ونمّوا مباحثه، فمرّ عليه من فترات النشأة والتجديد والابتكار ماشاءالله إلى أن ظهر في مراحل التفكير النحوي في التفسير أئمة كبار تعتبر تفاسيرهم موسوعات شاملة لألوان المعارف الإسلامية والعربية، بيد أن الصبغة النحوية لا تغلب عليها ومؤلفيها لا يعدّون من أئمة النحو المشهورين الذين يغلب عليهم هذا التخصص - كما هو في رجال مراحل التفسير الأولى - (راجع: رفيدة، ١٩٩٠، ج١، صص٥٦٣-٥٦٤) فليس مذهبهم النحوي واضحا جلياً ولم يتركوا أثراً في النحو، بل هم علماء لهم من سعة العلم والإدراك ما يمكّنهم من الاجتهاد والاختيار ومناقشة آراء المدارس النحوية وغيرها، فيجعل منهم أئمة في النحو لهم مذاهبهم وآراؤهم، إلا أن كشف مذهبهم بحاجة إلى فحص دقيق باستنطاق نصوص التفسير. من هؤلاء، الشيخ الطوسي في "التبيان" إذ أودعه مؤلفه، ذو الكفاءات الشتى والمؤهلات العالية، النصيب الأوفر من العلوم اللغوية والمباحث الأدبية النحوية وغيرها مما يتعلق بالإعراب وسخّر طاقاتها وفجّرها في ميدان التفسير.

ورغم هذا كله، فقد اشتهر "التبيان" بأنه من التفاسير التي يغلب عليها الاتجاه العقلي والكلامي؛ الأمر الذي جعل الباحثين والدارسين لا يهتمون به اهتماما بالغا؛ ربما سبب ذلك شهادة تاريخ التفسير بأن تفسير كل مفسر يصطبغ بلون تخصصه وميدان تفوقه، ومما لا ينكر أن الشيخ الطوسي، هو من هو، يعتبر من أركان المذهب الجعفري ودعائمه ومن أئمة الكلام البارعين والفقهاء المتضلعين حتى لقّب بـ"شيخ الطائفة" ولا يعدّ من أعلام النحو البارزين أو اللغويين المعروفين، ليلفت نظر الباحث الأدبي، إلا أنه زعم لا مقيل له في ظل الحقيقة وسرعان ما ينقشع لمستنطق نصوص هذا التفسير والمرصد لظواهره النحوية؛ فإن الناظر فيه نظرة فاحصة ليقف على ثروة أدبية طائلة تستوقفه وتثير إعجابه، إذ "التبيان" ميدان برزت فيه ملامح شخصيته الفذة لأنه علم لا يشق له غبار؛ فبينما تراه مفسرا لا يجارى ومجتهدا لا يبارى ومتكلما متّقنا، تجده لغويا بارعا ونحويا بصيرا (راجع: جاسم، ١٤١٤، ص١٦٣) فيمثل عناية الطوسي بشتى جوانب الأدب ولاسيما النحو بشكل بارز، مما يدلّ على براعته فيه وتمكنه منه.

أجل، أن للنحو ميدانا واسعا في تفسير الطوسي، فقد احتوى على كثير من الآراء النحوية لأعلام مدرستي البصرة والكوفة كالخليل الفراهيدي[١] وسيبويه[٢] والكسائي[٣] وقطرب[٤] والفراء[٥] وأبي عبيدة[٦] والأخفش[٧] وثعلب[٨] والزجاج[٩] وأبي علي الفارسي[١٠] وغيرهم. ثمّ إنه ليس مجرد ناقل للآراء،

---

١. أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب كتاب العين.
٢. أبو الحسن عمرو بن عثمان البصري النحوي، صاحب الكتاب، المتوفى في حدود سنة ١٨٠هـ.
٣. أبو الحسن علي بن حمزة الكوفي البغدادي، المتوفى سنة ١٨٩هـ.
٤. أبو علي محمد بن المستنير البصري النحوي، المتوفي سنة ١٨٩هـ.
٥. أبو زكريا يحيى بن زياد الكوفي النحوي، المتوفى سنة ٢٠٧هـ.
٦. ابو عبيدة بن المثنى البصري النحوي المتوفى سنة ٢١٠هـ.
٧. ابو الحسن سعيدبن سعدة البصري النحوي المتوفى سنة ٢١٥هـ.
٨. ابو العباس احمدبن يحيى الكوفي النحوي المتوفى سنة ٢٩١هـ.
٩. ابو إسحاق ابراهيم بن السري النحوي المتوفي سنة ٣١١هـ.
١٠. أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسي النحوي المتوفى سنة ٣٧٧هـ.

بل ينقدها ويمحّصها ويميّز بين الصحيح والسقيم ببصيرة فنية كاملة وملكة موهوبة، مفنّدا تارة ومرجحا أخرى ونراه أحيانا يجتهد برأيه دون الاستشهاد برأي أحدهم (راجع: اكبرآبادي، ١٣٩١، ص٣٧؛ آية الله زاده الشيرازي، ١٣٩١، ص٤٧١؛ راجع: جاسم، ١٤١٤، ص١٧٨).

فلعلّ في ذلك كله وطريقة معالجته للمباحث النحوية دليل على تضلّعه بهذا العلم واتساع آفاقه النحوية والأدبية وتبحره الواسع وبراعته المميّزة مما يجعل من أبي جعفر الطوسي في ميدان "التبيان" نحويّا ذا مذهب يمكن كشف مذهبه النحوي بمرور على عصره وما يفرضه ويقتضيه، ثم استنطاق نصوص تفسيره الذي هو ما يهمني في هذا البحث، فسأتناوله بالقدر المتاح وبأقصى ما أستطيع من الاختصار، وهو موضوع خِصب نابض بالحيوية فيه، غزير بالإجتهاد في التطبيق والتوجيه والتحليل.

مذهب الطوسي النحوي

يقتضينا البحث العلمي أن نرجع في بيان المذهب النحوي لأبي جعفر الطوسي إلى ما يعطينا وضوحاً وبياناً، فنقول: يمكن أن نضع أيدينا على انتمائه إلى المذهب البغدادي، وبعبارة أخرى، حِياده بالنسبة للمذهبين البصري والكوفي الذي هو مذهبه النحوي - دون ريب - ودلائل ذلك إثنان - فيما أرى - وهما:

الف) عصره

إن الظروف التي عاشها الشيخ تقتضي إنتماءه إلى المذهب البغدادي، فإنه حضر بغداد من سنة ٤٠٨ حتى ٤٤٨هـ؛ فهو القرن الخامس وفي هذا العصر قد خمدت نعرات النحوية البصرية والكوفية إلى حد بعيد ولم تكن ناشطة، وذلك لأن كلتا المدرستين بعد انتقالهما من موطنيهما الأصليين إلى عاصمة الخلافة في بغداد في القرن الثالث، قد انقطعتا عن الوجود وامتزجت إحداهما بالأخرى شيئاً فشيئاً، وكان ذلك سبباً لعرض المذهبين، ثم نقدهما والاختيار منهما (أمين، ج٢، ص٢٩٧)، فلا نرى اشتعال نيران التنافسات بين المدرستين، كما لا نرى أثراً للمناظرات التي كانت تجري بين النحاة كسيبويه والكسائي (راجع: القطفي، ١٩٥٠، ج٢، ص٣٥٨ و٣٥٩؛ الحموي، ج١٦، ص١١٩) والجرمي والفراء (الأنباري، ١٩٧٦، ص١٤٥) والكسائي واليزيدي (الحموي،

ج١٣، ص١٧٨). و«في هذه الأرضية أتيح للبغداديين أن ينظروا في المذهبين وأضافوا إلى ذلك ما عنّ لهم من آراء خاصة، فإنهم وإن كانوا أكثر ميلاً في بداية الأمر إلى الكوفيين وذلك لمكانة نُحاة الكوفة عند العباسيين، إلّا أنهم اتبعوا في الوقت نفسه المذهب البصري في كثير من المسائل» (الأسد، ١٤١٣، ص١٢). فقامت على أنقاض المدرستين القديمتين: المدرسة البغدادية أو المدرسة المزدوجة، إذ كان عملها في كثير من الأحيان منصبّاً فى التوفيق بين كلا المنهجين (راجع: السيد، ١٩٨٦، ص١٠٨).

ثم إن طبيعة عمل الشيخ وطريق معالجته للمسائل النحوية تَفرُض أن يختار لنفسه المذهب البغدادي، فإنه لا يتعرض للمسائل النحوية بالذات، وإنه ليس بصدد تأليف أثر في النحو، وإنّما يتعرض لها لصلتها بالتأويل واختلاف وجوه الإعراب لوجوه التأويل.

ب) استنطاق نصوص تفسيره "التبيان"

للتحقيق من انتمائه إلى المذهب البغدادي النحوي لابد من الرجوع إلى نصوص من تفسيره نستنطقها ونستجليها الحقيقة[1] وأبادر إلى القول: إن هذه النصوص - في عمومها - تجعل من أبي جعفر الطوسي بغدادياً في أصول تفكيره النحوي وتعبيره عنه، وسأوضح ذلك في ثلاثة مظاهر وهي:

---

١. لم يسجّل لنا التاريخ شيئاً عن نشأة الشيخ الأدبية وتتلمذه عند نحوي خاص، أيام حياته في طوس ثم بغداد، لنستعين بذلك على كشف مذهبه النحوي، ولقد تصفحت كثيراً من المصادر التي ترجمت للشيخ، فلم أظفر بشيء أذكره في هذا المجال، والذي قاله الأستاذ سيدأحمد أكبرآبادي فلا يمكن الاعتماد عليه؛ حيث قال «وللشيخ مصنفات كثيرة في كل علم من العلوم الإسلامية والآداب العربية وفنونها» (١٣٥٠، ص٥٥) فإنه قول لا يؤيده تاريخ حياة الشيخ، كما لم أعثر له على مؤلف خاص في موضوع النحو أو الأدب بشكل عام، وإنما تجلت شخصية الشيخ الأدبية في آثاره ولاسيما تفسيره «التبيان» هذا السفر القيم، ولم أجد من اهتم بالجانب النحوي لثقافة الشيخ في عرض شامل، نعم هناك بعض المقالات تعرضت لمنهج الشيخ الطوسي في التفسير حيث أشار مؤلفوها إلى الجانب النحوي في هذا التفسير إشارت عابرة مما لا يمكن كشف مذهب الشيخ النحوي منها.

استعماله المصطلحات النحوية البصرية والكوفية

مما يؤكد حياد الشيخ بالنسبة للمذهبين الكوفي والبصري وإنتماءه إلى المذهب البغدادي أنه يستخدم مصطلحات المذهبين عند تعرضه للمسائل النحوية، فلا يتعصب في إستعماله لها لمذهب خاص.

فإليك نماذج من استعماله لمصطلحات المذهبين:

التعبير بالضمير وبالكناية والمكني:

فإنه قد يعبر عنه بالضمير - بحسب الاصطلاح البصري - وقد يعبر عنه بالكناية أو المكنى - حسب الاصطلاح الكوفي -.

فمن تعبيره بالضمير قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (بقره/٤٥): «الضمير في قوله (وإنها لكبيرة) عائد على الصلاة عند أكثر المفسرين» (الطوسي، ج١، ص٢٠٣).

ومن تعبيره بلفظ المكني، ففي ذيل قوله تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (محمد/٣٨).

حيث قال: «قال بعضهم: العرب إذا زادت التقريب جعلت المكنى بين (ها) وبين (ذا)، فيقولون: ها أنت ذا قائماً» (الطوسي، ج٩، ص٣٠٩).

كما أنه عبر عن الضمير بالكناية في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة/٤٠).

قال: «قيل: فيمن تعود الهاء إليه من قوله ﴿عليه﴾ قولان: أحدهما: أنها تعود إلى النبي٦ والثاني: قال الجبائي: تعود على أبي بكر... ثم قال «الأول أصح، لأن جميع الكنايات قبل هذا وبعده راجعة إلى النبي... فلا يليق أن يتخلل ذلك كله كناية عن غيره ٦» (الطوسي، ج٥، ص٢٢١-٢٢٢). فترى أن الشيخ في هذا النص قد عبر عن الضمير بالكناية وهو اصطلاح كوفي.

ومن تعبيره بالضمير ما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ (الزخرف/٦١) حيث قال: «الضمير في قوله (إنه للساعة) يحتمل أن يكون راجعاً إلى عيسى(ع)» (الطوسي، ج٩، ص٢٢١).

ومن تعبيره بالكناية ففي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ (النساء/١٢) حيث عبر الشيخ عن لفظ الضمير بالكناية التي هي مصطلح كوفي؛ قال: «قوله: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة﴾ ثم قال ﴿وله أخ أو أخت﴾ ولم يقل: لهما، كما تقول: من كان له أخ أو أخت فليصله، ويجوز: فليصلها ويجوز فليصلها، فالأول يردّ الكناية إلى الأخ والثاني على الاخت، والثالث عليها، وكل ذلك حسن» (الطوسي، ج٣، ص١٣٧).

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة/٤٠). عبر بالضمير وقال: «أياي ضمير منصوب ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله ﴿فارهبون﴾ لأنه مشغول» (الطوسي، ج١، ص١٨٣). أي أن ﴿فارهبون﴾ مشغول بالضمير بعده، حذف لدلالة الكسرة عليه، فلا يعمل في ما قبله.

وعبر بالكناية في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ (البقرة/٧٠)، وقال: «الكناية في قوله: ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ لا يجوز أن تكون كناية إلا عن البقرة التي تقدم ذكرها وأمرهم بذبحها، لأنه لم يجر في الكلام ما يجوز أن تكون هذه الكناية عنه إلا البقرة، ويجري ذلك مجرى أن يقول واحد لغلامه: أعطني تفاحة فيقول الغلام: ما هي؟ بيّنْها، فلا يصرف واحد من العقلاء هذه الكناية الا إلى التفاحة المامور بإعطائه إياها. ثم يقال بعد ذلك ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ﴾ وقد علمنا أن الهاء في قوله: ﴿إنه يقول﴾ كناية عنه تعالى، لانه لم يتقدم ما يجوز أن يكون كناية عنه إلا اسمه تعالى. وكذا يجب أن يكون قوله: «إنها» كناية عن البقرة المتقدم ذكرها والاّ فما الفرق بين الأمرين؟ وكذلك الكلام في الكناية الثانية والثالثة سواء.

ولا خلاف بين المفسرين أن الكناية في الاية من أولها إلى آخرها كناية عن البقرة المأمور بها في الأوّل» (الطوسي، ج١، ص٣٠٢).

التعبير بالعماد والتعبير بالفصل:

نري الشيخ يعبر بالعماد حيناً وبالفصل حيناً آخر. ففي قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ (بقرة/١٢).

قال: «الهاء والميم في موضع النصب بأنّ، و(هم) فصل عند البصريين ويسميه الكوفيون عماداً» (الطوسي، ج١، ص٧٦) فقد صرح بالتعبيرين ونسبها إلى المذهبين.

كما عبر بالعماد في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/٩٦)، فقال: «وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر» يعني: وما التعمير وطول البقاء بمزحزحه من عذاب الله (هو) عماد لطلب (ما) الاسم أكثر من طلبها الفعل» (الطوسي، ج١، ص٣٥٩).

التعبير بالقطع والتعبير بالحال:

نشاهد أن الشيخ في تفسيره «التبيان» يستخدم اصطلاح المذهبين في تعبيره بالقطع حيناً وبالحال حيناً آخر. فقال: في تفسير قوله تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء/١٦٥).

قال: «نصب (رسلاً) على القطع من أسماء الأنبياء الذين ذكر أسماءهم و﴿مبشرين﴾ نصب على الحال. والتقدير: أرسلت هؤلاء الأنبياء رسلاً إلى خلقي وعبادي مبشرين بثوابي من أطاعني وصدّق رسلي» (الطوسي، ج٣، ص٣٩٤).

فعبر الشيخ في آية واحدة مرة بالقطع ومرة بالحال وقد صرح الطبري وأبو حيان الأندلسي أن التعبير عن الحال بالقطع تسمية الكوفيين (راجع: الطبري، ١٣٢٣، ج١، ص١٨٢؛ ج٦، صص٢٦١ و٢٧٠؛ ج١٥، صص٧٦-٧٧؛ أبو حيان، ج١، ص١٢٥).

الصرف:

وهو نصب الفعل المضارع بالمخالفة لما قبله. وهذا مصطلح كوفي (ابن الأنباري، ١٩٩٩، ج٢، ص٥٥٥؛ الفرّاء، ج١، ص٣٣-٣٤) مثاله قول تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ (الشوري/٣٣-٣٥).

أجاز الشيخ في (يعلم) وجهين من الإعراب:

أحدهما: الرفع على الاستئناف وذلك «لأن الشرط والجزاء قد تمّ فجاز الابتداء بما بعدهُ» (الطوسي، ج٩، ص١٦٤).

الثاني: النصب بانصرافه وعدم اشراكه في إعراب ما قبله قال: «فمن نصبه فعلي الصرف» ثم نقل عن الكوفيين معنى الصرف فقال: «قال الكوفيين هو مصروف من مجزوم إلى منصوب» (م.ن).

وفي نفس الوقت يشير إلى المصطلح البصري فيه وهو نصب المضارع بإضمار (أن) قال: «قال البصريون: هو نصب باضمار (أن)، تقديره: أن يعلم.

كما قال الشاعر:

ولبسُ عَباءةٍ وتَقرَّ عيني أحّب إلي مِنْ لبسِ الشُفُوف[1]

تقديره: وأن تقرّ عيني» (المصدر نفسه).

فترى أن الشيخ استخدم اصطلاح الكوفي في إعراب الآيه كما أنه استخدم في نفس الوقت اصطلاح البصري وهو نصبه بأن المقدرة.

التعبير بالنسق والتعبير بالعطف بالحروف:

قد يعبر الشيخ بالنسق عن العطف بالحروف وهو اصطلاح كوفي (الاسترآبادي، ج٢، ص٨٦٦) وقد يعبر بالعطف الذي هو اصطلاح بصري، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة/٩٢).

---

١. البيت لميسون بنت بحدل الكلبية وهو من شواهد: سيبويه، ١٤١٠، ج١، ص٤٢٦؛ وابن الشجري، ١٣٤٩، ج١، ص٢٨٠؛ وابن يعيش، ج٧، ص٢٥؛ ابن هشام، أوضح المسالك، ١٩٦٦، ص٥٠٥؛ المغني، ١٩٧٩، صص٤٧١ و٥١٦ و٦٧٠ و٨٦٤ و٩٤٨؛ شرح شذور الذهب، ١٩٦٥، ص٢٧٩؛ عمر البغدادي، ١٩٦٧، ج٣، ص٥٩٣ و٦٢١؛ العيني، ١٩٦٧، ج٤، ص٣٩٧؛ خالد الأزهري، ج٢، ص٢٤٤؛ السيوطي، ص١٠٣٦؛ الأشموني، ج٣، ص٣١٣. الشفوف: الثياب الرقيقية.

قال: «وليس المراد بثم هاهنا النسق، وانما المراد بها التوبيخ والتعجب والاستعظام لكفر هم مع مارأوا من الآيات» (الطوسي، ج١، ص٣٥٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾ (البقرة/٣٠) قال: «وموضع ﴿إذ﴾ من قوله تعالى ﴿وإذ قلنا﴾ نصب لأنه عطف على ﴿إذ﴾ الأولى» (الطوسي، ج١، ص١٤٩). كما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ (آل عمران/٤٨): «وموضع ﴿يعلمه﴾ من الإعراب، لأنه عطف على جملة لا موضع لها وهي قوله ﴿كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (الطوسي، ج٢، ص٤٦٦).

التعبير بالبدل والتعبير بالتفسير والتكرير والتكرار:

الذي يتصفح تفسير الشيخ يشاهد أنه تارة يعبر بالبدل وهو اصطلاح بصري، وتارة يعبر بالتفسير أو التكرير أو التكرار، وهي مصطلحات كوفية، ففي قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾ (البقرة/١٣٩) قال: «ونصب ﴿صبغة الله﴾ في الآية يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون مردوداً على ﴿بل ملة إبراهيم﴾ بدلا منه وتفسيراً له (الطوسي، ج١، ص٤٨٥) فعبر تارة بالبدل وتارة أخرى بالتفسير.

وفي قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ﴾ (البقرة/٩٠) نقل في إعراب ﴿أن يكفروا﴾ وجوهاً، من جملة ما نقل قول بعضهم: «إن (أن) في موضع خفض إن شئت، وإن شئت في موضع رفع؛ فالخفض أن ترده على الهاء في (به) على التكرير على كلامين، لانك قلت: اشتروا انفسهم بالكفر، والرفع أن يكون تكراراً على موضع (ما) التي تلي بئس، ولا يجوز أن يكون رفعاً على قولك: بئس الرجل عبدالله» (الطوسي، ج١، صص٣٤٧-٣٤٨).

فعبر عن البدل بالتكرير والتكرار وهما مصطلحان كوفيان (السيوطي، ج٢، ص١٢٥؛ أبو حيان، ج٢، ص١٤٢).

وأما التعبير بالبدل فكثير، منها ما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا﴾ (آل عمران/١٦٨) بما لفظه، «موضع (الذين) يحتمل ثلاثة أوجه من الإعراب.

أحدها: أن يكون نصباً على البدل من ﴿الذين نافقوا﴾.

الثاني: الرفع على البدل من الضمير في (يكتمون)» (الطوسي، ج٣، ص٤٤).

كثرة نقله عن ائمة المذهبين:

ومما يؤكد مذهبه البغدادي نقله عن أئمة المذهبين دون عصبية، فانه يصرح باسم سيبويه واليزيدي والخليل ويونس وأبو عبيدة وأضرابهم وينقل عنهم كما يصرح باسم الكسائي وأصحابه وينقل عنهم، وانه كما ينقل عن الفراء مع التصريح باسمه، ينقل عن الزجاج بكثرة.

فمن ذلك النماذج التالية:

في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ...﴾ (البقرة/٤٨).

فترى أنه نقل عن الكسائي وصرح باسمه ثم نقل عن سيبويه وأصحابه مصرحاً بأسمائهم.

تعرض لإعراب الآية ونقل في العائد من جملة (تجزي) أقوال أئمة المذهبين، قال: «موضع (لا تجري) نصب لأنه صفة اليوم والعائد عند الكسائي لا يكون الا الهاء محذوفة من تجزيه، وقال بعضهم: لا يجوز إلا فيه، وقال سيبويه والاخفش والزجاج: يجوز الأمران» (الطوسي، ج١، ص٢١٠).

في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (البقرة/٢٥).

أخذ الشيخ في إعراب الآية وقال: «﴿جنات﴾ منصوب بأن وكسرت التاء، لانها تاء التانيث في جمع السلامة وهي مسكورة في حال النصب بالخفض، وموضع ﴿أنّ﴾ نصب بقوله ﴿وبشر الذين﴾ أي إن ﴿أن﴾ وما بعده مفعول لقوله ﴿بشّر﴾، ثم جمع بين قول إمامين من المذهبين مصرحاً باسمهما وقال «قال الخليل والكسائي: موضعه الجرّ بالباء كانه قال: وبشّرهم بأن لهم» (الطوسي، ج١، ص١٠٨).

في قوله تعالى: ﴿غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة/٧).

استهل الشيخ كلامه بأعراب ﴿غير﴾ وبين إعرابه إذا قرئ ﴿غير﴾ مخفوضاً، ثم قال «وقرئ في الشواذ ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بالنصب» ثم نقل في وجه هذه القراءة أقوال النجاة فقال: «قال الاخفش والزجاج: انها نصب على وجه الاستثناء من صفة الذين انعمت عليهم، وتقديره: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين انعمت عليهم إلا المغضوب عليهم الذين لم تنعم عليهم في أديانهم، فلا تجعلنا فهم... ومعناه: أن الاستثناء منقطع، فان المغضوب عليهم الذين لم ينعم الله عليهم بالأديان ليسوا تحت ﴿الذين أنعمت عليهم﴾.

وقال: «قال الفراء: هذا خطأ، لأنه لو كان كذلك لما قال: ﴿ولا الضالين﴾ لأن «لا» نفي وجحد ولا يعطف على جحد إلا بجحد، ولا يعطف بالجحد على الاستثناء وإنما يعطف بالاستثناء على الاستثناء وبالجحد على الجحد» (الطوسي، ج١، صص٤٤-٤٥).

فترى أن الشيخ قد نقل عن الاخفش والزجاج اللذين يعتبران من أصحاب المدرسة البصرية كما نقل عن الفراء المتعصب في مذهبه الكوفي.

في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ... فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ...﴾ (البقرة/١٠٢)، نقل في إعراب الآية ما ذكره الكسائي والفراء وهما امامان للمذهب الكوفي ونقل في نفس الوقت ما قاله الزجاج المشهور بغلبة النزعة البصرية عليه، قال: «﴿فيتعلمون﴾ يجوز أن يكون عطفاً على فيأتون فيتعلمون، وقد دل أول الكلام على يأتون، وقيل: فيتعلمون الناس السحر فيتعلمون وكلاهما ذكره الكسائي والفراء وأنكر الزجاج القول الأخير، لأجل قوله: ﴿منهما﴾ أي من الملكين، وأجاز القول الأول» (الطوسي، ج١، ص٣٨٣).

في قول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ (البقرة/٢٣٤).

تصدى الشيخ لإعراب هذه الآية ونقل في خبر ﴿الذين﴾ أربعة أقوال، وجمع بين أئمة المذهبين من الأخفش والزجاج وأبي العباس المبرد والكسائي والفراء؛ قال: «أولها: أن يكون الجملة على تقدير ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا﴾ أزواجهم يتربصن والثاني... على تقدير ﴿يتربصن﴾ بعدهم ازواجهم أربعة أشهر وعشراً، والثالث: أن يكون الضمير في يتربصن لما عاد إلى مضاف في المعنى، كان بمنزلة ذلك المضاف على تقدير: يتربصن ازواجهم». ثم أسند هذه الأقوال الثلاثة إلى قائليها، وقال: الاول قول ابي العباس المبرد والثاني قول الاخفش والثالث للزجاج».

ثم نقل قولاً رابعاً وهو «أن يعدل عن الاخبار عن الزوج لأن المعنى عليه والفائدة فيه» (الطوسي، ج٢، صص٢٦٢-٢٦٣)، ونسبه إلى الكسائي والفراء، وذكر إنكار أبي العباس والزجاج له.

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء/٢٦).

قام الشيخ بإعراب ﴿ليبين لكم﴾ ونقل للنحويين أقوالاً ثلاثة في إعرابها، ونسبها إلى ائمة المذهبين وقال: «للنحويين فيه ثلاثة أقوال:

أولها: قال الكسائي والفراء والكوفيون: إن معناها (اللام) وأن والفعل المضارع بعدها منصوب بها.

الثاني: قال الزجاج: لا يجوز أن تقع اللام بمعنى أن و... ومذهب سيبويه وأصحابه أن اللام دخلت في هذا على تقدير المصدر: أي إرادة البيان لكم...» (الطوسي، ج٣، ص١٧٤). ثم نقل تضعيف بعض النحويين للقولين السابقين حيث ادعي ذلك البعض أن اللام بمعنى (أن) المصدرية من دون إقامة حجة قاطعة تقنع الشيخ.

ففي هذه الأمثلة وغيرها، مما صرح فيها باسماء ائمة المذهبين واستعان بآرائهم في إعراب الآيات، قرائن يمكن أن نستدل بها على حياد الشيخ للمذهبين وانتماءه إلى المذهب البغدادي. ونظائرها في التبيان وفرة وفيرة يصعب عدّها.

نقده لأئمة المذهبين:

مما يؤكد حياد الشيخ بالنسبة للمذهبين انه لم يكن مجرد ناقل للآراء أو التوجيهات، بل يقود هذه الآراء ويخضعها لمناسباته وفق ما يفرضه تأويل الآيات أو تستجيب له القراءات، فلم يكن يتورع عن مناقشة النحاة وادحاض آرائهم أو قبولها غير مفرق في ذلك بين بصري وكوفي حيث نراه قد يوجّه نقده إلى الكسائي والفراء الكوفيين وقد يسوق نقده نحو الاخفش وابي عبيدة البصريين وغيرهم من ائمة المذهبين.

إليكم بعض النماذج منها في مايلي:

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا...﴾ (البقرة/٢٤٦).

عرض الشيخ أقوال النحاة في ﴿أن﴾ في قوله تعالى: ما لنا ألا نقاتل ﴿أن لا نقاتل﴾ وسبب ذكرها في الآية، مما ذكر من الأقوال قول الأخفش بزيادة أن، فوجه نقده إليه، قال: «أن تكون أن زائدة في قول الأخفش وهو ضعيف، لأنه لا يجوز الحمل على الزيادة إلا لضرورة» (الطوسي، ج٢، ص٢٨٧).

في قول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة/٣١).

عمد إلى نقد الكسائي في قوله «إن» بمعنى «إذ» فقال: ﴿إن كنتم صادقين﴾ شرط كانه قيل: ان كنتم صادقين في الاخبار بذلك وليس «ان» بمعنى «إذ» على ما حكاه الكسائي عن بعض المفسرين، لأنها لو كانت كذلك، لكانت «أن» - بفتح الهمزة - وتقديره، ان كنتم محققين ايمانكم فافعلوا كذا وكذا، لان (إذ) إذا تقدمها فعل مستقبل صارت علة للفعل وسبباً له، كقولك: إذ قمت، أي من أجل أن قمت. فلو كانت (إن) في الآية بمعنى (إذ)، كان التقدير: انبئوني باسماء هؤلاء من أجل انكم صادقين وإذا وضعت (إن) مكان ذلك، وجب أو تفتح الألف وذلك خلاف ما عليه القراء» (الطوسي، ج١، ص١٤٠).

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/٣٠).

عمد إلى نقد ابي عبيده في قوله إذ زائدة، فنقل كلامه بطوله وقال:«قال أبو عبيده: ﴿إذ﴾ زائدة والتقدير ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ وهي تحذف وذلك كقول الأسود بن يعمر:

وإذا وذلك لا مهاه لذكره والدَهرُ يُعقِب صالحاً بفساد[1]

معناه: وذلك لا مهاه لذكره.

وقال عبد مناة بن مربع وقيل: ابن ربع الهذلي:

حتى إذا أسلكوهم في قَتائدِه شَلاً كما تَطْرُد الجَمّالةُ الشَّردا[2]

ومعناه: حتى أسلكوهم.

وهذا الذي ذكره أبو عبيدة ليس بصحيح، لأن (إذ) حرف يأتي بمعنى الجزاء، ويدل على مجهول من الوقت ولا يجوز ابطال حرف كان دليلا على معنى في الكلام إلا لضرورة وليس المعنى في البيتين على ما ظن، بل لو حمل (إذا) في البيتين على البطلان بطل معنى الكلام الذي أراد الشاعر، لأن الأسود أراد بقوله: (إذا) الذي نحن فيه وما مضي من عيشنا، وأراد بقوله (ذلك) الإشارة إلى ما تقدم وصفه من عيشه الذي كان فيه لا مهاه لذكره؛ يعني: لا طعم له، ولا فضل لأعقاب الدهر ذلك يفساد. ومعنى قول عبد مناة بن مربع: حتى إذا اسلكوهم في قتائدة، أن قوله: اسلكوهم مثلاً يدل على معنى محذوف، واستغني عن ذكره بدلالة (إذا) عليه فحذف كما قال نمر بن تولب:

فَإنّ المنية مَنْ يَخْشَهَا فَسَوْفَ يُصادفه أينما[3]

---

١. لم أجد هذا الشاهد إلا في القرطبي، ١٣٨٧، ج١، ص٢٦٢.

٢. البيت من شواهد: أبي عبيدة، ١٩٥٤، ج١، صص٣٦-٣٧؛ أبن الأنباري، ١٩٩٩، ج٢، ص٤٦؛ عمر البغدادي، ١٩٦٧، ج٣، ص١٧٠؛ السيوطي، ص٨٠١. أسلك الرجل غيره الطريق وسلكه فيه: اضطره إليه والقتائده: محل في طريق مكة والمدينة وهي لغة: الموضع الذي فيه قتاد كثير. والقتاد، نبات ذو شوك. والشل: الطرد. والجمالة: الجمالون. والشرد: الإبل التي تشرد عن مواضعها وتقصد غيرها وتطره عنها، جواب (إذا) في البيت فعل محذوف دل عليه المصدر.

٣. ابن الشجري، ١٣٤٩، ج١، ص١٦؛ عمر البغدادي، ١٩٦٧، ج٤، ص٤٣٨؛ القرطبي، ١٣٨٧، ج١، ص٢٦٢.

يريد: أينما ذهب، وكما يقول القائل: من قبل ومن بعدُ؛ يريد: من قبل ذلك، ومن بعد ذلك، ويقول القائل: إذا أكرمك أخوك فأكرمه وإذا، فلا يريد فإذا لم يكرمك فلا تكرمه ومن ذلك قال الشاعر:

فإذا وذلك لا يضُرّك ضَرّةً في يوم أسأل نائلا وأنكد[1]

وكذلك لو حذف (إذ) في الآية لا ستحالت عن معناها الذي تفيده (إذ)، لان تقديره: ابتدأ خلقكم إذ قال ربك للملائكة.

قال الزجاج والرماني: أخطأ أبو عبيده، لان كلام الله لا يجوز أن يحمل على اللغو مع إمكان حمله على زيادة فائدة قالا: ومعنى إذ: الوقت وهي اسم كيف يكون لغواً؟» (الطوسي، ج١، صص١٢٨-١٢٩).

في قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنَزَلَ اللّهُ...﴾ (البقرة/٩٠).

وجّه الشيخ نقده إلى الكسائي حين جعل ﴿أن﴾ في موضع خفض بنية الباء، قال: «والكسائي جعل ﴿أن﴾ في موضع خفض بنية الباء وانما كان النصب أقوم، لتمام الخبر قبلها ولا خافض معها، وحرف الخفض إذا كان مضمراً لا تخفض به» (الطوسي، ج١، ص٣٤٨).

فترى أن الشيخ في هذه النماذج الاربعة قد وجه نقده إلى ائمة المذهبيين دون عصبية، مما يدل على حياده للمذهبين وعدم تقيده بهما. لعلّه فيما ذكرناه غنى وكفاية ولها نظائر أخرى في التبيان كثيرة، لو أوردناها لطال الكلام بما لا جدوى فيه معتدّة.

النتيجة

- إن تفسير «التبيان» عديم النذير في التفاسير يعتبر موسوعة كبيرة ودائرة معارف شاملة لعلوم العربية من نحو وغيرها كما يعد مرجعا لعلوم الشريعة كلها.

---

١. لم نقف عليه في المصادر إلا الطبري، ١٣٢٣، ج١، ص١٥٤.

- عالج الشيخ الطوسي المسائل الأدبية والنحوية معالجة شاملة في وجازة وإيفاء وسخّر طاقاتها وفجّرها في ميدان التفسير ليستعين بها في إعراب الآيات وتحليلها وتأويلها وفهمها فهما أصيلا.

- إن للنحو ميدانا واسعا في تفسير الطوسي؛ فقد احتوى على كثير من الآراء النحوية لأعلام مدرستي البصرة والكوفة، ثم إنه ليس مجرد ناقل للآراء، بل يقف منها موضع الناقد البصير، فينقدها ويمحّصها ويميّز بين الصحيح والسقيم، مفنّدا تارة ومرجحا أخرى ويجتهد برأيه دون الاستشهاد برأي أحدهم ثالثة، مما يدل على تضلعه وتبحره الواسعين بهذا العلم ويجعل منه إماما في النحو له مذهبه ورأيه.

- إن الطوسي في أصول تفكيره النحوي بغدادي كما تشهد بذلك الظروف التي عاشها ونصوص تفسيره استنطقناها واستجلينا الأمر بها.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. آية الله زاده الشيرازي، سيدمرتضى (١٣٩١). عرض للاتجاه اللغوي في تفسير التبيان. الطبعة الثانية، مشهد: منشورات جامعة الفردوسي.
٣. ابن الأنباري، محمد بن قاسم (١٩٩٩م). الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، القاهرة: مطبعة مجازي.
٤. ابن الشجري، هبة الله بن علي (١٣٤٩). الأمالي الشجرية. حيدرآباد دكن: دار المعارف العثمانية.
٥. ابن هشام، عبدالله بن يوسف (١٩٦٦م). أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، مصر: مطعبة السعادة.
٦. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ (١٩٦٥م). شرح شذور الذهب. الطبعة العاشرة، مصر: مطعبة السعادة.
٧. ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ (١٩٧٩م). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. تحقيق مازن مبارك ومحمد علي حمدالله، الطبعة الخامسة، بيروت: دار الفكر.
٨. ابن يعيش، موفق الدين (دون تا). شرح المفصل. القاهرة: دار الطباعة المنيرية.
٩. أبو عبيدة، معمر بن المثني (١٩٥٤م). مجاز القرآن. الطبعة الثانية، مصر: مطبعة السعادة، نشر مكتبة الخانجي.
١٠. الحكيم، حسن عيسى (١٩٧٥م). الشيخ الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن. النجف: مطبعة الآداب.
١١. الأزهري، خالد بن عبدالله (دون تا). شرح التصريح على التوضيح. مصر: مطعبة عيسى البابي الحلبي.

١٢. الإسترآبادي، رضي الدين (دون تا). شرح الكافية. قم: مؤسسة اسماعيليان.
١٣. الأشموني، علي بن محمد (دون تا). شرح الأشموني على الألفية. مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي.
١٤. أمين، أحمد (دون تا). ضحى الإسلام. الطبعة السابعة، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
١٥. الأنباري، أبو البركات (١٩٧٦م). نزهة الألباء في تاريخ الأدباء. تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، مصر: دار نهضة.
١٦. أكبرآبادي، سيدأحمد (١٣٩١). الشيخ الطوسي ومنهجه في تفسير القرآن. الطبعة الثانية، مشهد: منشورات جامعة الفردوسي.
١٧. أبو حيان، محمد بن يوسف (دون تا). البحر المحيط في التفسير. الرياض: مكتبة النشر الحديثة.
١٨. بحرالحلوم، محمدمهدي بن مرتضى (١٩٦٦م). الرجال المعروف بالفوائد الرجالية. النجف: مطبعة الآداب.
١٩. البغدادي، عبدالقادر عمر (١٩٦٧م). خزانة الأدب ولب لباب العرب. تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: دار الكاتب العربي.
٢٠. جاسم أبو طبرة، هدى (١٤١٤). التفسير الأثري للقرآن الكريم. قم: مكتب الإعلام الإسلامي.
٢١. رفيدة، إبراهيم عبدالله (١٩٩٠م). النحو وكتب التفسير. الطبعة الثالثة، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان.
٢٢. سيبويه، عمر بن عثمان (١٩٩٠م). كتاب سيبويه. الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
٢٣. السيوطي، جلال الدين (دون تا). همع الهوامع شرح جمع الجوامع. بيروت: دار المعرفة.
٢٤. الطبري، محمد بن جرير (١٣٢٣هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. بولاق: المطبعة الأميرية الكبرى.